المحاضرة الرابعة

علم الدلالة والمستويات اللغوية

تتناول في هذه المحاضرة علاقة علم الدلالة بالمستويات اللغوية المعروفة، والمقصود بهذه الأخيرة (أي المستويات اللغوية) كل من المستوى الصوتي، المستوى الصرفي أو المرفولوجي، المستوى التركيبي أوالنحوي كما نجد ذلك في بعض الكتب.

وصلب الموضوع هنا كيف يمكن لهذه المستويات اللغوية أن تتشكل بها دلالة أو معنى؟ وبعبارة أخرى كيف يتمكن المتكلمون من استغلال الطاقات الصوتية أو الصرفية أو النحوية في لغة ما لأجل بناء المعنى أو توصيل الدلالة؟ هذا ما سنحاول الكشف عنه من خلال استعراض كل مستوى على حدة في علاقتة بالدلالة.

1 الدلالة والمستوى الصوتي:

إن الأصوات هي المادة الأساسية التي يتشكل منها الكلام البشري على اختلافه وتنوعه، وللأصوات دور هام في بناء المعاني والدلالات بالنظر لما تتوفر عليه البنية الصوتية في اللغات من قدرات وتنويعات يمكن معاينة أثرها في المعاني، ويمكننا تبيان كيفيات تشكل المعنى من خلال الأصوات عبر الحالات والأمثلة التالية:

أ-الحركات الأعرابية:

وهي نظام ملحق بالنظام الصوتي العربي، ولها بالغ الأثر في تحديد الدلالة المقصودة أو المستفادة من الكلام ، فبحركة إعرابية واحدة قد يتغير المعنى من النقيض إلى النقيض، والأمثلة على ذلك كثيرة من بينها قوله عز وجل:"إنما يخشى الله من عبادة العلماء" نلاحظ هنا أن الحركة الإعرابية في آخر كلمة "العلماء" تتحكم في المعنى المطلوب، فإن كانت "ضمة" فهو الصحيح والمطلوب حسب سياق الآية القرآنية، وإن كانت "فتحة" فدلالة الآية ستنصرف إلى معنى غير مراد.

-التضعيف او الشدة:

إذا طرحنا المثالين التاليين:"كسر" وكسر" (بتشديد السين)، وحاولنا فهم دلالة كل فعل منهما، فلا ريب أن كلاهما يدل على ذات الحدث وهو القيام بفعل الكسر أو التكسير، غبر أن المعطى الصوتي أو الظاهرة الصوتية الموجودة وهي التضعيف أو الشدة قد أفادت فارقا دلاليا بين الكلمتين وهو أن الكلمة الثانية تختلف دلاليا عن الأولى من حيث "قوة الكسر" لا حدث الكسر في خد ذاته، وقس على ذلك كل الأمثلة التي يرد فيها التضعيف باعتباره مؤسسا على قاعدة صوتية، إذ يسهم في تحقيق فارق دلالي يدركه المستمعون بيسر.

-تكرار الأصوات:

إن تكرار صوت بعينه في نص ما شعرا أو نثرا ليس حدثا اعتباطيا، بل هي عملية مقصودة وإن لم تكن واعية، فإذا أخذنا على سبيل المثال قصيدة شعرية ثم لاحظنا من خلال قيامنا بعمل إحصائي دقيق وجود صوت "الميم" بكثرة أي أنه شديد التواتر في هذا النص الشعري، فإن لهذا دلالاته، ويمكن إدراك المعنى وراء هذا التواتر الملحوظ من خلال الربط بين صفات الصوت ومخرجه من ناحية، والسياق العام للنص وفكرته الأساسية من ناحية أخرى.

2 الدلالة والمستوى الصرفي (المرفولوجي):

يمكن للبنى أو الصيغ التي تبنى عليها الكلمات أن تكون عنصرا فاعلا في بناء المعنى وفهم المراد من الكلام، ولعل البنية الصرفية في اللغة العربية تحديدا من بين مستويات اللغة التي يسهل علينا إدراك الدلالات المترتبة عن استعمالها، والسبب في ذلك أن اللغويين العرب القدماء قد حصروا منذ قرون الصيغ الصرفية التي جاءت عليها كلمات اللغة العربية وأفعالها، وبعد حصرهم لتلك الصيغ من خلال الكلمات الواردة على هيئتها تمكنوا من ضبط معاني الصيغ الصرفية في اللغة العربية، فذكروا على سيبل المثال هنا لا الحصر: أن صيغة "استفعل" تدل على

الطلب والدعاء والاستغفار وغيرها، وأن الصيغة الصرفية "أفعل" تدل على التعدية، والدخول في المكان أو الزمان وغيرها.وهكذا يمكن للباحث أن يقرأ نصا ما قراءة صرفية من خلال إحصاءه لصيغ الأسماء والأفعال الواردة في النص، ومن ثمة يمكنه التعرف على المعنى المطلوب الذي لا يخرج على المعاني الصرفية التي حددها القدماء لكل صيغة صرفية.

3- المستوى التركيبي اوالنحوي:

هناك قاعدة عامة تحكم علاقة الجملة أو التركيب بالجانب الدلالي، مفاد هذه القاعدة أن كل تغيير في التركيب له أثر في المعنى بالضرورة.

والجملة العربية كما هو معروف لها نظام خاص تبنى عليه، هو بمثابة البنية الأصلية لها، وهذا النظام أو تلك البنية عرضة للتغييرات التي تتحكم فيها سياقات الكلام ومقاماته وظروفه وأطرافه وأغراضه، فمثلا الجملة الفعلية أصل ترتيب عناصرها النحوية هو:الفعل + الفاعل + المفعول به، أو الجملة الاسمية فأصلها: مبتدأ +خبر.

إن كل تغيير يطرأ على هذا الترتيب سيكون مرفوقا بالضرورة بدلالة مخصوصة أو معنى مراد، ويمكننا في هذا الإطار تحديد الحالات التي تتغير فيها الصورة الأصلية للتركيب أو الجملة والتي سنكتفي بذكر البعض منها وهي في عمومها ظاهر نحوية/بلاغية ذكرها علماء اللغة قديما.

-التقديم والتأخير:

وهي ظاهرة لغوية يأتيها المتكلم في السياقات المختلفة، ويقدم عليها المتخاطبون لأجل أداء دلالة بعينها، فمثلا قولك:

نال عمر الجائزة // نال الجائزة عمر

لا شك أن للجملتين المجال الدلالي نفسه أو أن المعنى العام هو في عمومه متقارب جدا، غير أن التقديم والتأخير لعنصر نحوي مقابل عنصر آخر كما هو وارد

في الجملة الثانية يبرز لنا إن ثمة فارقا دلاليا، فلئن كانت الجلمة الأولى مجرد إخبار إو إعلام بخبر ما فإن الجملة الثانية تنصرف دلالتها لا إلى مجر الإخبار ، بل إلى إخبار من نوع خاص وهو هنا أهمية الجائزة لا المتحصل عليها، فقد تكون قيمة الجائزة أو ما يترتب عن الحصول عليها سببا في تقديم المتكلم لها أثناء الكلام.

-الحذف:

إن حذف عنصر نحوي من الجملة هو صورة من صور تغيير البنية الأصلية للجملة وهذا أيضا له تبعاته على مستوى المعنى المراد أو المستفاد من الجملة أو الدلالة المقصودة.

ويزخر القرآن الكريم والشعر والنثر العربيين بكثير من الأمثلة على ورود الحذف في نمطي الجملة العربية (الفعلية والاسمية) وارتباط ذلك كله بسعي صاحب النص إلى توصيل القارئ أو المستمع بمعنى مخصوص دون غيره.